254247 ـ هل الأحاديث التي ورد فيها (خيركم) و (خير الناس) وذكر فيها أعمال مختلفة ، متعارضة؟

السؤال

قال رسول صلى الله عليه وسلم : (خيركم خيركم لأهله) ، وقال رسول الله : (خير الناس أنفعهم للناس) ، وقال : (خيركم من تعلم القران وعلمه) ، وهناك أحاديث أخرى عن خير الناس ، وأنا الآن في حيرة من أمري ، من هو خير الناس ؟ ، وأنا أرى من خلال فهمي القصير أن الأحاديث متعارضة ظاهريا في بيان ذلك .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

اعلم – أيها الأخ الكريم – أنه لا تعارض على الحقيقة بين نصوص الشرع ، فإنها جميعا من مشكاة واحدة .
وأما ما ذكرته من الاختلاف الظاهري بين هذه الأحاديث التي ورد فيها خير الناس أو خيركم وهكذا ، فالحقيقة أنه لا تعارض بينها ، في حقيقة الأمر ، البتة ، وبيان ذلك كما يلي :ـ
أولا :
أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تختلف أجوبته على السؤال الواحد بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَاحْتِيَاجِ الْمُخَاطَبِينَ ، فربما يكون الزمان يستدعي الحث على عمل ما ، وربما يكون حال السائل خاصة ، هو الذي يستدعي ذلك .
قال الطيبي في "شرح المشكاة" (3/867):" ووجه التوفيق : أنه صلى الله عليه وسلم أجاب لكل بما يوافق غرضه ، وما يرغب فيه ، أو أجاب علي حسب ما عرف من حاله ، بما هو يليق به وأصلح له ؛ توفيقاً له على ما خفي عليه .
وقد يقول القائل : خير الأشياء كذا ، ولا يريد تفضيله في نفسه علي جميع الأشياء ، ولكن يريد أنه خيرها في حال دون حال، ولواحد دون آخر، وذلك مثل قولك في موضع يحمد فيه السكوت: لا شيء أفضل من السكوت، وقولك حيث يحمد الكلام: لا شيء أفضل من الكلام.
ولقد تعاضدت النصوص على فضل الصلاة على الصدقة ، ثم إن تجددت حال تقتضي مواساة مضطر، أو إصلاح ذات ، بين فتكون الصدقة حينئذ أفضل ... " . انتهى

ثانيا :
أن جملة خيركم أو خير الناس ، لا يلزم منها الخيرية المطلقة في كل موطن ، وإنما قد تكون هذه الخيرية مقيدة بوجه ما أو

بحال دون حال ، فيكون تقدير الكلام : من خير الناس ، ومن خيركم ، فيكون المعنى أن من اتصف بتلك الصفات فهو من خير الناس ، كما يقول أحدنا عن رجل كريم مثلا : أكرم الناس فلان ، فهذا لا ينفي الكرم عن غيره ، وقد سبق تقرير هذا الوجه في كلام الطيبي السابق نقله .

وقد نقل النووي أيضا عن الإمام القفال الكبير ، من أئمة الشافعية . : " أَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَهَا بِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ ذَلِكَ اخْتِلَافُ جَوَابٍ جَرَى عَلَى حَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يُقَالُ خَيْرُ الْأَشْيَاءِ كَذَا ، وَلَا يُرَادُ بِهِ خَيْرُ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ ، وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ ؛ بَلْ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ ، أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ .

وَاسْتَشْهَدَ في ذلك بأخبار ، منها : عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (حَجَّةٌ لِمَنْ لَمْ يَحُجَّ أَفْضَلُ مِنْ أَرْبَعِينَ غَزْوَةً ، وَغَزْوَةٌ لِمَنْ حج أفضل من أربعين حجة) .

الوجه الثَّانِي : أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ كَذَا ، أَوْ مِنْ خَيْرِهَا ، أَوْ مِنْ خَيْرِكُمْ مَنْ فَعَلَ كَذَا ، فَحُذِفَتْ مِنْ وَهِيَ مُرَادَةٌ ، كَمَا يُقَالُ : فُلَانٌ أَعْقَلُ النَّاسِ وَأَفْضَلُهُمْ ، وَيُرَادُ : أَنَّهُ مِنْ أَعْقَلِهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ .

وَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (خَيْرُكُمْ : خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ) ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَصِيرُ بِذَلِكَ خِيرَ النَّاسِ مُطْلَقًا .

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ : أَزْهَدُ النَّاسِ فِي الْعَالِمِ جِيرَانُهُ ، وَقَدْ يُوجَدُ فِي غَيْرِهِمْ مَنْ هُوَ أَزْهَدُ مِنْهُمْ فِيهِ .

هَذَا كَلَامُ الْقَفَّالِ رَحِمَهُ اللَّهُ" انتهى .

وأيده على ذلك الحافظ ابن حجر في "الفتح" (1/79) فقال :

" وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ لَفْظَةَ مِنْ مُرَادَةٌ ، كَمَا يُقَالُ فُلَانٌ أَعْقَلُ النَّاسِ ، وَالْمُرَادُ مِنْ أَعْقَلِهِمْ ، وَمِنْهُ حَدِيثُ : (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ) ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يَصِيرُ بِذَلِكَ خَيْرَ النَّاسِ". انتهى

ثالثا :

أن يرد حديث النبي صلى الله عليه وسلم على سبب ما ، أو حدث معين ، يستدعي من النبي صلى الله عليه وسلم أن يرغب الناس في خصلة من خصال الخير .

فمن ذلك قوله :"خيركم خيركم لأهله " جاء سبب ذلك عند ابن حبان في صحيحه (4186) بإسناد جيد عن ابن عباس : " أن الرجال استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ضرب النساء ، فأذن لهم ، فضربوهن ، فبات فسمع صوتا عاليا ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : أذنت للرجال في ضرب النساء فضربوهن فنهاهم وقال : (خيركم خيركم لأهله وأنا من خيركم لأهلي) " .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم :"خيركم أحسنكم قضاء " ؛ فقد جاء فيه عند البخاري (2305) : " أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَتَقَاضَاهُ ، فَأَغْلَظَ ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا) ، ثُمَّ قَالَ (أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ) ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ لاَ نَجِدُ إِلاَّ أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ ، فَقَالَ (أَعْطُوهُ فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً).

وينظر للفائدة : جواب السؤال رقم : (232966).

وختاما : نسأل الله تعالى لنا وللسائل الكريم ولجميع المسلمين أن يجعلنا ممن له الحظ الأوفر من هذا الخير ، اللهم آمين .

والله أعلم .